

## فصل تمهيدى

### المشكلات النظرية والمنهجية فى دراسة الأسرة

- ١ - مقدمة .
- ٢ - مشكلة المنهج الملائم
- ٣ - قضية القوانين العامة فى تطور الأسرة
- ٤ - الأسرة كجماعة من نوع خاص .

obeikandi.com

## فصل تمهيدى

### المشكلات النظرية والمنهجية في دراسة الأسرة

يعتبر علم الاجتماع العائلي من أحدث فروع علم الاجتماع التي تبلورت موضوعاتها ومناهجها ، كما يعد في نفس الوقت من أنحصب فروع علم الاجتماع من حيث المشكلات الهامة والقضايا التي تتجدد أهميتها ويتعاطم وزنها في مجتمعتنا الحديث أيا كان موقعه على خريطة الكرة الأرضية ومهما تباينت الاتجاهات الفكرية التي تتبناها .

ومأحاول في هذا الفصل أن أضع يدي على بعض المشكلات المعاصرة وأبرز ملامح بعض القضايا التي تشغل اهتمام العاملين في هذا الحقل الهام من حقول الدراسة الاجتماعية . وفي اعتقادي أن بلورة المشكلات وأبرز القضايا الجوهرية الجديرة بالدراسة يمثل إسهاماً كبيراً على طريق نمو العلم وعملا هاما في توجيه الدراسات والبحوث في حقل ذلك العلم . ومن ثم يزداد اقتناعي كلما وضعت يدي على إحدى تلك المشكلات وأجملتها إلى جانب المشكلات الأخرى أنني أساهم بذلك في وضع ما يمكن أن يكون برنامجا للدراسات والبحوث العلمية في هذا الفرع الحيوى من فروع الدراسة الاجتماعية العلمية .

#### ١ - مقدمة :

ولعل كل مشتغل بالعلوم الاجتماعية - على اتساعها وتشعبها - يدرك إدراكا واضحا ليس في حاجة إلى تدليل أن اهتمام المفكرين بالأسرة وخصائصها ومشكلاتها اهتمام يضرب بجذور عميقة في تاريخ الفكر الإنساني ، بل يكاد يكون قديما قدم الفكر الإنساني نفسه . ولا نعرف حضارة راقية - خلفت لنا تراثا مكتوبا - لم يهتم مفكروها بالأسرة من زاوية أو أخرى . ولكن الاهتمامات تتنوع وتباين ، فمن اهتمامات فلسفية إلى أخرى أخلاقية إلى نائلة تأملية . . إلخ وهي جميعا اتجاهات بعيدة بعدا شديداً عن الاهتمامات العلمية الموضوعية التي يحاول العلماء المعاصرون تأصيلها وتدعيمها وتطويرها .

ويمكن القول بأن دراسات الزواج والأسرة قد شهدت مرحلة طويلة تمتد منذ بداية التاريخ

المدون حتى منتصف القرن التاسع عشر: «وتضم هذه المرحلة الفكر العاطفي - الحرفي أو التأمل - في موضوع الأسرة، كما يمثل في: التراث الشعبي عن الأسرة، وكتابات الأدباء، والتأملات الفلسفية. وربما كان من أعلام هذا الفكر في عالم الأدب: شكسبير، روبرت واليزيث براوننج، ووالث وايتمان، وفي عالم الدين: كونفوشيوس، وسانت أوغسطين، وفي عالم الفلسفة: أفلاطون، وأرسطو، وجون لوك... الخ»<sup>(١)</sup>.

إلا أن الدراسة العلمية للأسرة لم تبدأ تتخذ شكلها الحالي المعروف إلا منذ نحو مائة عام فقط، أي في تاريخ لاحق بكثير - نسبياً - على قيام علم الاجتماع الأم واستقلاله ورسوخ أقدامه ولم تتحقق تلك النقطة التاريخية إلا تحت وطأة التغيرات الهائلة والمشكلات العنيفة والتوترات التي أصابت النظام الأسري في المجتمعات الغربية في أعقاب الانقلاب الصناعي وما عاصره وترتب عليه من تغيرات اجتماعية عميقة وبعيدة المدى. ومن هنا يمكن القول بأن قيام علم الاجتماع العائلي وترسخ أقدامه كان وليد حاجة عملية ومتطلبات يومية فرضتها طبيعة الحياة ودفعت إليها ظروف مرحلية، وإن كانت الأمور بعد ذلك سارت سيرة أخرى.

قد أفاد علماء الاجتماع من الثغرات النظرية إلى أهمية الأسرة، كواحد من أبرز النظم الاجتماعية، ومن ثم شرعت الأقلام تلق الضوء على مختلف جوانب هذا النظام. وكان من الطبيعي أن يكون أصحاب التأملات النظرية والانساق الفكرية أول وكذلك أبرز المشاركين في هذا السياق. وهكذا دخلت دراسات الأسرة في حقل علم الاجتماع في حمى الدراسة التطورية التي كانت «موضة» الفكر في ذلك الوقت. وطالعتنا دراسات عن تطور حجم الأسرة، ونظام الانتساب (إلى الأم أو إلى الأب)، والزواج... إلخ. وتأتي على رأس تلك الدراسات التطورية دراسة باخوفين Bachofen عن «النظام الأمومي»، ودراسات هنري مين Maine. ولوليس مورجان، وإدوارد وستر مارك، وتايلور، وهوارد، وغيرهم من العلماء<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر «تطور ميدان دراسة الأسرة» فصل في الكتاب التالى: «ذكورة علياء شكري وآخرون، قرادات في الأسرة ومشكلاتها في المجتمع المعاصر، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٩١ وما بعدها. هذا وقد قدم الدكتور مصطفي المنشاب لكتابه: «دراسات في الاجتماع العائلي»، فصل من «الأسرة في نظر الفلاسفة» - دراسة تاريخية نظرية، تناول فيه كثيراً من الأمور المشار إليها هنا. انظر الكتاب للذكور، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٦ وما بعدها.

(٢) انظر عرضاً وافياً ومناقشة مستفيضة لهذه الدراسات وطاقمة غيرها عند:

Harold T. Christensen, «Development of the Family Field of Study» in: Handbook of Marriage and the Family, by H.T. Christensen (ed.) Chicago, 1964, pp. 3-32.

كما نجد انتقادات وآراء سديدة في مناقشة تلك الدراسات عند رينه كونيج:

R. Konig, Familie and Familiensoziologie, in: Wilhelm Bernsdorf (ed.) Wörterbuch der Soziologie, 2 Ausgabe, Stuttgart, 1969, pp. 247-262.

ومع أن هذه الدراسات الوفيرة والمستفيضة ذات الاتجاهات التطورية كانت تستهدف في الأصل إثراء فهمنا وتنمية معلوماتنا عن الأسرة المعاصرة ، حيث أن الدراسة التاريخية إنما تهدف في نهاية الأمر إلى تمكيننا من رؤية الحاضر على نحو أفضل ، مع ذلك تاهت تلك الدراسات ، وضل معظم أصحابها طريقهم ، بل انحرف بعضهم بالفعل عن جادة الصواب . وانفصلت الدراسة التاريخية ( التأميلية الظنية أساسا ) انفصالا يكاد يكون تاما عن الواقع الأسرى القائم في المجتمعات المعاصرة . وهكذا أصبحنا أمام وضع متناقض ؛ ففي الوقت الذي توجد فيه تحت أيدينا معلومات هائلة وتفصيل وفيرة عن نظم الأسرة والزواج في المجتمعات التي تعرف بالبدائية وفي المجتمعات الموعلة في القدم ، تكاد نفتقر افتقارا كليا إلى تصور متكامل معتمد على أسس امبيريقية عن تطور أشكال الأسرة والزواج في المجتمعات المعاصرة .

ولاشك أن هذا الوضع الصارخ يفرض على المشتغلين بعلم الاجتماع العائلي ضرورة العودة إلى الظروف المعاصرة للأسرة والزواج والتركيز عليها . وإعطائها حقا من العناية سواء على مستوى جمع المادة ، أو تحليل المادة المتاحة والتي كانت مهملة في الماضي . فإذا كانت الأسرة أحد النظم الاجتماعية الكبرى والأساسية في أي مجتمع فهي تدخل في علاقات متشابكة وفي تفاعل كامل مع بقية النظم القائمة في أي مجتمع ، ومن ثم فإن حاجتنا إلى فهم الأسرة المعاصرة - تدعونا إلى التركيز على المجتمع المعاصر الذي تعيش فيه هذه الأسرة وتفاعل معه .

ولكن علينا أن تساءل ، هل كان ذلك التقصير الواضح في دراسة الأسرة المعاصرة راجعا إلى قصور في المنهج المستخدم ، وهل من شأن الارتقاء المنهجي في هذا الحقل أن ترتقي مستويات الدراسة . وتقرب جهود الباحثين من مشكلات المجتمعات المعاصرة ؟ تلك كلها أمور يمكن أن تزداد انضاحا إذا ما أولينا موضوع المنهج في دراسات الاجتماع العائلي قدرا من اهتمامنا .

## ٢ - مشكلة المنهج الملائم :

أشرت من قبل إلى أن الدراسات التطورية للأسرة والزواج ظلت تتخبط وتتصارع وتتناقض في نتائجها وتتباعد في اتجاهاتها ولعل السبب الرئيسي لهذا التخبط وهذا التناقض هو افتقارها جميعا إلى القدر الواجب من التأصيل امبيريقى لدراساتها . وفي رأى أنها لو فعلت لاستطاعت أن تهتدى إلى سواء السبيل منذ فترة مبكرة . ووسط تيار التطورية الجارف برزت محاولتان ، كانتا بمثابة استثناء من الطابع العام في ذلك الوقت . وأعني دراسات الألماني فيلهلم هيريش ريل Richl والفرنسى فريدريك لوبلاى Le play .



بتعرض للنقد والتجريح من أكثر من ناحية . فقد أخفق في اختيار الأسرة « الطرازية » ، أعنى تلك المثلة تمثيلاً سليماً للقاعدة العمالية التي كان يدرسها . وهى نقطة أساسية لأنه عدل عن استخدام الأسلوب الإحصائي في دراسة الأسرة العمالية ، واختار بدلاً من هذا أسلوب دراسة الحالة ، الذى يقوم على الدراسة المركزة وعلى المعايشة المتصلة وعلى مشاركة الباحث حياة تلك الأسرة . ولذلك تكون سلامة الاختيار ضماناً لسلامة النتائج وشرطاً أساسياً من شروطه . أما عن النتائج التى توصل إليها من تلك الدراسات فكانت نتائج مشوهة ومضطربة من الناحية الأيديولوجية . لذلك يجمع مؤرخو الفكر الاجتماعى على أن قيمة دراسات لوبلاى ليست فى نتائجها الموضوعية ، وإنما تمثل قيمتها الكبرى فى الإضافة المنهجية التى قدمها لوبلاى إلى البحث العلمى الاجتماعى <sup>(٤)</sup> .

وقد تجمعت حول لوبلاى مجموعة من الباحثين الذين تعلقوا بأفكاره الإصلاحية ، كما جذبهم أساليبه فى البحث . وقد أصدروا دورية علمية أطلقوا عليها اسم « العلم الاجتماعى » . وركزت بحوث تلك المجموعة فى بادئ الأمر على الدراسات الإقليمية ، ثم ما لبثت بعد ذلك أن وسعت نطاق بحثها بحيث أجرت دراسات تغطى بلاداً بأكملها . واتخذت تلك البحوث - سيراً على نهج لوبلاى - من الأسرة وحدة للمقارنة . وظلت الدراسات المونوجرافية لهذه الجماعة بمثابة مثل أعلى لكل البحوث الأميريكية <sup>(٥)</sup> .

ويرجع الفضل إلى مدرسة لوبلاى فى إنجلترا وكذلك إلى مدرسة « مسح المجتمع المحلى » « Community Surveys » فى إدخال عديد من الضوابط وأدوات الأحكام على منهج دراسة الحالة كما عرفناه عند لوبلاى <sup>(٦)</sup> .

ثم حرص كبار علماء الاجتماع المحدثون على لفت النظر إلى الثغرات التى تعيب تطبيق هذا المنهج الجديد على غير هدى . فأوضح دور كايم كيف أن الإغراق فى الوصف فى غيبة إطار تصورى واضح سوف ينتهى حتماً إلى متاهة لا يخرج منها وفوضى يمكن أن تهدم ثمرة كل بحث .

(٤) انظر طياء شكرى ، علم الاجتماع القرنى المعاصر .. دار الكتب الجامعية ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٤ ومابعدها .

(٥) المرجع السابق ، ص ١٦ وكذلك مقال ريبه كونيج الذى سبقت الإشارة إليه ، ص ٢٥٠ . وقد انشئت دار لوبلاى « Le Play House » فى لندن أساساً ، ثم انتقلت منذ عام ١٩٤٠ الى ليدبورى فى هرفورشاير ، وكان A. Farquharson آخر من تولى رئاستها .

(٦) وخاصة فى أعمال تشارلز بوث ، وجديز ، ورافورد ، وراونترى وويب ، وياولى .

Cf. Sidney and B. Webb, Methods of Social Study, 1932.

ووجدنا نفرا من علماء الاجتماع الألمان يؤكدون بدورهم على أهمية تمثيل « الحالة » أو الحالات التي تختار موضوعا للدراسة . ويمكن القول بالاختصار بأن هذه المشكلة قد شغلت مكانا بارزا في كل كتابات البحث الاجتماعي المعاصرة .

وقد قدم « هيل » Hill في عرضه للمادة العلمية من ١٩٤٥ - ١٩٥٦ مزيدا من الشواهد على ازدياد الاهتمام بالمنهج العلمي في دراسة الأسرة . أوضح على وجه الخصوص أن هناك اتجاهات نحو :

( أ ) استخدام عينات أكثر تمثيلا ، على الرغم من أن معظم الدراسات في أمريكا مازالت تعتمد على عينات غير ممثلة ، مثل طلبة المعاهد العليا .

( ب ) ازدياد الاعتماد على الملاحظة المباشرة في جمع المادة ، على الرغم من أن الاستمارات وكشوف الأسئلة ( الاستبيانات ) والاختبارات مازالت - رغم كل ما فيها من مثالب - أكثر الوسائل انتشارا .

( ج ) ازدياد الاعتماد على احصائيات الاحتمال في تحليل المادة .

( د ) كثرة اختبار الفروض الموضوعية نظريا .

( هـ ) كثرة اتخاذ المواقف ذات الطبيعة الإحصائية (٧) .

والواقع أن مشكلة المنهج الملائم يجب أن تقودنا في النهاية إلى نقطة - تمثل بدورها قضية أساسية من قضايا العلم - هي ارتباط البحث بالنظرية ، أي أن يلتزم الباحث في دراسته بإطار نظري يرشده ويوجهه . وقد أشار هارولد كريستنسن إلى أن « التكوين المنهجي للنظرية قد أصبح يمثل اهتماما رئيسيا في دراسات الأسرة في المرحلة التي بدأت حوالى عام ١٩٥٠ . وربما كان الاهتمام بوضع نظرية هو الاتجاه السائد في المرحلة الراهنة من تطور علم الاجتماع العائلي » (٨) . ولكن لاشك أن قضية ارتباط البحث بالنظرية قضية عامة وشاملة لا تقتصر على علم الاجتماع العائلي وحده ، وإنما تعد أدخل في باب المناقشات النظرية والمنهجية في علم الاجتماع العام .

### ٣ - قضية القوانين العامة في تطور الأسرة ( قانون التفاضل ) :

أشرت من قبل إلى أن الدراسات التطورية قد أفرزت كما هائلا من المادة عن المجتمعات التي تعرف بالبداية وعن المجتمعات العتيقة الموعلة في القدم ، في الوقت الذي صرفت فيه الاهتمام عن

(٧) انظر هارولد كريستنسن ، تطور ميدان دراسة الأسرة ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .

(٨) المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

دراسة الأسرة في ظل ظروف الحياة المعاصرة . ووجه الأهمية في اتصال دراسات الأسرة من الماضي السحيق إلى الحاضر أننا لا نستطيع أن نحدد ما إذا كان هناك قانون تطوري واحد يحكم تطور أشكال الأسرة ووظائفها ، أو نظم الزواج وأشكاله منذ العهود القديمة إلى اليوم <sup>(٩)</sup> . ولعل القانون التطوري الوحيد الذي يمكن أن يعد مؤقتا موحدا نظريا لهذا النوع من الدراسات « قانون التقلص » الذي قال به دوركايم <sup>(١٠)</sup> والذي يذهب إلى أن حجم الأسرة أخذ في الانكماش أو التقلص تدريجيا في دوائر (قراية) أوسع إلى دوائر أضيق فأضيق . بحيث نصل في نهاية المطاف إلى « الأسرة الزوجية التي نعرفها في عالم اليوم ، والتي لا تضم سوى الزوج والزوجة وأولادهما المباشرين . ومن هنا يصبح الزواج هو العامل الأول والأساسي في تكوين الأسرة . وفي التأثير على حجمها وظروفها <sup>(١١)</sup> .

ولقد كان دور كايم يعتقد في بادئ الأمر أن هذا القانون ينطبق على تطور الأسرة منذ أقدم النظم الاجتماعية حتى الوقت الحاضر ، وأن بالإمكان إثبات ذلك والتدليل عليه . ولكن لا شك أن توسيع مجال انطباقه على هذا النحو لا يصمد أمام الشواهد التي تخالف ذلك وتضعف من هذا الحكم العام . وربما كان الأقرب إلى الصواب القول بأن هذا القانون ينطبق على تطور نظام الأسرة

(٩) وإن كانت قد توفرت - بشكل جزئى - بعض الدراسات القيمة عن تطور الأسرة والزواج في بعض المجتمعات الحديثة ، نذكر منها دراسات ماريان فيبر عن « التطور القانوني لوضع الزوجة والأم » ، ودراسات مولر لاير عن « الأسرة » ، ودراسة جودسل عن « تاريخ الزواج والأسرة » ، ودراسة كارل زيرمان عن « الأسرة والحضارة » ، وأوردما فبايلي على سبيل المثال :

Marianne Weber, Ehefrau und Mutter in der Rechtsentwicklung, 1907; Fr. Müller-Lyer, Die Familie, 1911; W. Goodsell, A History of Marriage and the Family, 1915, 2nd ed. 1934 and C. Zimmerman, Family and Civilization, 1947.

وإن كانت تعد أكثر إعادة من ذلك تلك الدراسات ذات الطابع الوصفي في الغالب - التي تصور تطور الأسرة في ثقافات أو مجتمعات بعينها مثل :

A. W. Colboun A Social History of the American Family, 3 Vols. rev. ed. 1960; Ph. Aries, l'Enfant et la vie familiale sous l'Ancien Regime, 1960.

وكذلك دراسات ماكس بلوش العديدة عن الاقطاع .

(١٠) انظر في ذلك مقالة :

La Famille conjugale, in: Revue Philosophique, 1921.

وكذلك اشاراته السابقة إلى هذا الموضوع في كتابه : « الانتحار » الذي صدر في طبعته الأولى عام ١٨٩٧ ، وصدرت الطبعة الثانية بعد ذلك عام ١٩٣٠ .

(١١) انظر مزيدا من التفاصيل في المراجع التالية :

T. Parsons, The Kinship System of the Contemporary United States, in: Essays in Sociological Theory, 1949 (Originally Published 1943) and R. Konig, Materialien zur Soziologie der Familie, 1946.

منذ العصر الكلاسيكي حتى العصر الحاضر ، مع فتح باب الاحتمال بأن يكون هذا التقلص قد تكرر أكثر من مرة في بعض المجتمعات على امتداد هذا الحيز الزمني أى أن الأسرة قد وصلت إلى هذا الحجم الصغير مرة ثم عادت فاتسعت دائرة القرابة من جديد ، وعادت إلى التقلص في تاريخ لاحق ، وهكذا يمكن تصور العملية بشكل دورى .

وترداد هذه الصورة تعقيدا أمام ناظرينا إذا وجد في نفس المجتمع عدة أنماط من الأسرة في نفس الوقت . حيث تعيش الطبقات العليا في أسر ذات دوائر قرابية متسعة نسبيا ، بينما تعيش الطبقات الدنيا من الأصل في أسر زواجية محدودة العدد ، وهو الوضع الذى نصادفه على سبيل المثال في بعض الثقافات العتيقة الراقية منذ فترات مبكرة نسبيا . فإذا شهد النظام الأسرى في مثل ذلك المجتمع نوعا من التقلص ، فإنه لا يحدث إلا بالنسبة لأسر الطبقات العليا أو الطبقات الوسطى العليا ( التى كانت متضخمة أصلا ) ، بينما تظل أسر الطبقات الدنيا على حالها ، اللهم إلا أنها تزداد وزنا ويتعاطم دورها في الحياة الاجتماعية ، مثل الأسر الغالية الحديثة على سبيل المثال ، ( ولكن هذا التغير شئ . والتقلص الذى تحدثت عنه شئ آخر ) . وبأخذ التقلص في أسر الطبقات العليا مداه إلى أن يصل نمط الأسرة عندها إلى النمط الزواجى الشائع بين أسر الطبقات الدنيا . ومن الممكن أن نصف هذا التطور بأنه نوع من « التقارب » أو الالتقاء في التطور بين أشكال وأنماط الأسرة المختلفة .

إلا أن هذه النتيجة كثيرا ما تشذ أو تختلف في عصرنا الحاضر بالنسبة للقطاعات الفاتحة الثراء ، التى نجدها إما أنها لم تتحل عن نمط الأسرة القرابية القديمة أبدا ( كالأسر الملكية على سبيل المثال ) أو أنها بدأت تعود بشكل تلقائى إلى النمط الممتد من جديد . وهناك العديد من الشواهد على ذلك .<sup>(١٢)</sup>

كما أن من الشروط الأساسية الأخرى لفهم هذا التطور على حقيقته وتقييمه تقييما دقيقا للبيير بين « تحلل » Desintegration « وتفكك » Desorganization الأسرة<sup>(١٣)</sup> حيث نجد أن تحلل

(١٢) انظر على سبيل المثال :

R. König, Neue Perspektiven der Familien soziologie, in: Kölner Zeitschrift für Soziologie und sozialpsychologie, XV II, 1965.

وكذلك علياء شكرى ، الأسرة النووية والتصنيع ، فصل في الكتاب التالى : السيد الحسنى وآخرون ، دراسات في التنمية الاجتماعية القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ .

(١٣) يرجع الفضل لى رينيه كونيغ في تقديم هذين المصطلحين والقاء الضوء عليها وتحليلها انظر كتابه : دراسات في علم الاجتماع العائلى ، الذى سبقت الاشارة اليه ، حاشية رقم ١١ من هذه الدراسة .

الأسرة يسير موازياً للتحلل العام الذى يطرأ على المناطق الثقافية المختلفة ، أعنى - إن صح القول - « تشعب » الوعى الاجتماعى العام إلى عدد من القطاعات أو الوحدات الجزئية الثقافية (كالصناعة ، والاقتصاد ، والقانون ، والدولة ، والعلوم ، والفن ، وأخيراً الأسرة) . وهى قطاعات تعمل مستقلة عن بعضها نسبياً . ونلاحظ هنا أن هذه العملية ضرورة حتمية لا يمكن تجنبها ، كما لا يمكن الرجوع فيها ، ذلك أن ارتفاع الحضارات وتقدمها لا يتيسر تحقيقه إلا فى مجتمع متخصص متنوع (أو ما نعرفه فى الكتابات الاجتماعية باسم مبدأ « التخصص وتقسيم العمل ») . حيث يكمن وراء هذا التنوع المتزايد مبدأ اجتماعى تروى أساسى ، هو « التعاون مع التباين أو مع التنوع » .

كما نجد علاوة على هذا أن استقلال الأسرة هذا قد أدى على امتداد هذه العملية إلى تخفيض الإنجازات الوظيفية إلى مستوى الإنجازات الأسرية البحت . حيث ساعد على ذلك تضيق نطاق الأسرة واقتصره على جماعة الزوجين والأولاد فقط .<sup>(١٤)</sup> . وبذلك أصبحت الأسرة أهم أشكال الجماعات إذ أدى الاستقلال عن الإطار الاجتماعى العام إلى تكثيف الحياة وتوجيهها نحو الداخل توجيهها مركزاً . ولاشك أن هذا التكثيف الداخلى للعلاقات ظاهرة على جانب كبير من الأهمية ، حيث أن هذه البيئة العائلية هى الوفاء الذى تنمو فيه الشخصية الثقافية الاجتماعية . ومن هنا لا نغالى إطلاقاً عندما نقول إن علم الاجتماع العائلى المعاصر لا يقتصر على تقديم تحليل علمى للأسرة . وإنما يقدم لنا فى الوقت نفسه إسهاماً أساسياً فى دراسة وفهم ظروف الإنسان فى المجتمع المعاصر .

والملاحظ أن علم الاجتماع العائلى المعاصر قد ابتعد عن الاتجاه التشاؤمى الذى كان يسيطر على دراسات ذلك العلم فى الماضى ، وأصبح يؤمن عن يقين أننا بصدد نمط جديد من الأسرة قادر على أن يتميز بكل سمات الاستقرار والتكامل<sup>(١٥)</sup> . وقد استعرض العالم الألمانى كونيج هذا الخط

(١٤) انظر فى تفصيل تلك العملية ، ريتية كونيج ، دراسات فى علم الاجتماع العائلى ، مرجع سابق . كما اتجه الى هذه النقطة من قبل العلامة الأمريكى ماكيفر فى كتابه « الجماعة » .

R.M. Maclver, Community, 1917,

انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب الهام التى صدرت عن مكتبة الانجلو المصرية (بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين) .

(١٥) انظر على سبيل المثال :

H. Schelsky, Die Aufgaben einer Familiensoziologie in Deutschland, in: Kölner Zeitschrift für Soziologie, Neue Folge, 2. Jahrgang, 1949/50.

وانظر لنفس المؤلف الدراسة التى سبقت الإشارة إليها عن التغيرات المعاصرة فى الأسرة الألمانية ، التى صدرت فى طبعها الأولى عام ١٩٥٣ ، وفى الطبعة الثانية عام ١٩٦٧ .

التطورى الجديد ، وساق العديد من الشواهد للتدليل عليه في العديد من مؤلفاته في علم الاجتماع العائلى .

أما « التفكك » العائلى فهو على خلاف هذا لا يصف علاقة الأسرة مع النظام الاجتماعى العام واستقلالها عنه ، وإنما يصف الحالة الداخلية للأسرة ، التى تتعرض لتهديد بعض التطورات الاجتماعية العامة وبعض الأعاصير الداخلية الخاصة . ومن بين التطورات الاجتماعية التى يمكن أن تؤدى إلى التفكك الأسرى تلك التطورات الأخيرة التى طرأت على الحياة الاقتصادية وحياة المهنية على وجه الخصوص وكذلك على الحياة السياسية التى أدت جميعها إلى أن أصبحت الدولة تضطلع بالجانب الأكبر من الوظائف التى كانت تؤديها فى الماضى ( خاصة عملية التربية بمعناها الواسع ) كذلك تعمل التغيرات البيئية المتصلة ( كتغيير مكان الإقامة وعمل العمل وتغير العلاقة بين الأسرة والمدرسة . . الخ ) على إعاقة قيام نظم وأنماط عائلية مستقرة . يضاف إلى كل ذلك تأثير حالة سيولة الحركة الاجتماعية العامة فى المجتمع ، التى ترجع فى المقام الأول إلى انتشار الحراك الاجتماعى بأنواعه وأشكاله المختلفة ، وتغير أولويات القيم فى نظر الرأى العام مما جعل الأسرة تفقد ولا شك مكانتها القديمة كقيمة محورية من قيم الوجود الاجتماعى .

أما التفكك الداخلى للأسرة فيعرف بأنه مجموع مظاهر النقص التى تطرأ على رصيد الأسرة من الأفراد ( أى ما يعرف باسم « الأسرة الناقصة » المفككة . . بالمعنى الواسع ) . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أنه بسبب قانون التقلص العام واستقلالها أو انسلاخها عن النظم الاجتماعية الأخرى يحدث تقلص فى عدد أفراد الأسرة أيضاً ، ومن هنا يمكن القول بأن « تحلل » الكيان العائلى يؤثر بدوره على التفكك العائلى . ولو أن هذه العلاقة بين الظاهرتين ليست واضحة كل الوضوح ، إذ يمكن أن نجد فى أقصى حالات الاستقلال ( أو التحلل ) أعداداً لا نهاية لها من الأسر المنظمة المترابطة أقوى ما يكون الترابط وأحسن ما يكون النظام . وان كان يترتب على حالات التقلص القسوى أيضاً تأكيد واضح على استقلال كل من الزوجين عن بعضها من ناحية ، واستقلال الأولاد عن الوالدين من ناحية أخرى . ولهذا قيل إن التنظيم العائلى الصارم إنما هو حالة مؤقتة فى حياة الأسرة . وهو يبدأ مع ميلاد الطفل ، وينتهى بوصول الأطفال إلى سن البلوغ ، وإن كان تأثير الأسرة على الجيل الجديد يأخذ فى التراجع منذ فترة مبكرة نسبياً .

ويمكن القول بأن دورة الحياة الأسرية تستمر الآن نحو عشرين عاما فقط ، نظرا للانخفاض العام فى سن الزواج فى الوقت الحاضر . بحيث أنه بعد استقلال الجيل الجديد عن الوالدين بعد انتهاء دورة الحياة الأسرية يعود الزوجان وحيدين من جديد . ولعل هذا التطور يؤكد لنا المعنى

الذى ذهب إليه دور كايم عندما وصف الزواج بأنه « المجال المحورى للأسرة والنقطة الوحيدة فيها والتي تصف بالدوام والاستمرار » .

ويجب ألا يزعجنا قصر مدة الحياة الأسرية ، فقد نبه نفر من علماء الاجتماع العائل إلى أن الحفاظ على التنظيم العائل بعد الفترة المعينة الواجبة يمكن أن يؤثر تأثيراً سلبياً على حياة الأسرة في مجموعها وعلى مصالح أفرادها . وقد أطلق رينيه كونينج على هذا الوضع اسم « التنظيم المفرط » أو المبالغ فيه <sup>(١٦)</sup> . حيث يمكن أن يترتب عليه بعض المظاهر المعروفة مثل ارتباط الرجل بأمه ارتباطاً أكثر من اللازم ، كما يحدث في أوروبا على سبيل المثال ، أو ما يحدث في اليابان من تحكم الحياة ( أم الزوج ) في زوجة ابنا بدرجة مبالغ فيها أيضاً ، بينما نجد في الولايات المتحدة هذه العلاقة قائمة بين البنت وأمها . . وهكذا . وجميعها مواقف مرضية تؤدي إلى خلق العديد من المشكلات والأزمات التي تختم على جو الحياة الأسرية .

#### ٤ - الأسرة كجماعة من نوع خاص :

من النتائج الإيجابية التي أدى إليها التطور النظرى لعلم الاجتماع العائل المعاصر اكتمال النظرى إلى الأسرة كجماعة من نوع خاص . هذا في نفس الوقت الذى وصلت فيه نظرية علم الاجتماع عن الجماعات الانسانية إلى مزيد من الدقة والعمق بسبب الحوار مع دارسى علم الاجتماع العائل . والجدير بالذكر هنا أيضاً أن الإسهامات النظرية الأوربية في هذا المجال قد جاءت في أعقاب مبادرات نظرية أمريكية رائدة . حيث سبق تشارلز كولى Cooley ( في كتابه التنظيم الاجتماعى الصادر عام ١٩٠٩ ) إلى مناقشة مشكلة « الجماعات الأولية » وتحديد ملامح هذا النوع من الجماعات الإنسانية وخصائصه الأساسية . وعلى الرغم من أن جانباً من وجهة نظر كولى حول هذا الموضوع نبت أمريكى خالص ، وثمره حوار وتأمل لظروف أمريكية متميزة ، إلا أنه كان عظيم الأهمية بالنسبة لعلم الاجتماع العام كله بصفة عامة ، ولعلم الاجتماع العائل على وجه الخصوص . وخلاصة رأى كولى أن الجماعات الأولية ، تعد أولية من الناحية الزمنية ومن ناحية طبيعتها على السواء ، أى أنها تلك الجماعات التي تؤثر على نمو الشخص في مراحل الأولى سابقة

(١٦) انظر مثلاً للمالات التالية لكونينج :

R. Konig, «Überorganisation der Familie als Gefährdung der Zeelischen Gesundheit», in: Handbuch der Psychohygiene, Vol. I, 1949, and «Abhängigkeit und Selbstständigkeit in der Familie», in: Abhängigkeit und Selbstständigkeit in Sozialen Leben, by L.V. Wiese (ed.), Vol. I, 1951.

بذلك أى جماعة أخرى ( حيث تعد المسئلة عن بناء الشخصية الاجتماعية الثقافية ) . وأن تأثيرها ينفذ إلى أعماق شخصية الفرد ويمسها في مجموعها ( على خلاف « الجماعات الثانوية » ، أو الاتحادات بالمعنى الواسع التى يقتصر تأثيرها على جانب واحد بعينه من جوانب حياته ، ومن ثم يظل هذا التأثير مقتصرًا على السطح فقط ) . كذلك تمثل الجماعة الأولية فى طائفة من علاقات المواجهة الوثيقة التى تتميز بالترابط والتعاون . إلا أنه حدث بعد ذلك أن تراجع التأكيد على سمة التجاوز المكافى كخاصية مميزة للجماعات الأولية ، حيث ثبت أنه من الممكن قيام علاقات شخصية وثيقة وأليفة بالرغم من الانفصال المكافى بين أفراد الجماعات الأولية . وقد أثبت هذا - علاوة على ذلك - الأهمية الكبرى التى تتمتع بها العلاقات العائلية كمصدر لمادة البحوث والدراسات فى علم الاجتماع العائلى (١٧)

وهكذا ظلت سمة الترابط الوثيق أو الألفة intimacy أهم الملامح المميزة للجماعة الأولية (١٨)

واتفق جمهور الباحثين على أن أهم الجماعات الأولية هى : الأسرة وجماعة الجوار ، المجتمع المحلى ، وكذلك جماعات اللعب عند الأطفال (١٩) . ومن هنا يمكن أن نفهم - بوضوح أكبر - تعريف رينيه كونيغ للأسرة بوصفها : « جماعة من نوع خاص ، يرتبط أفرادها بعلاقة الشعور الواحد الأليف المترابط ، والتعاون والمساعدة المتبادلة . وتتميز العلاقات داخلها بالألفة والترابط ، وهى تخلق نفسها بنفسها (٢٠) » . حيث يبدو بوضوح كيف يمكن أن تعد الأسرة موقفاً من نوع خاص وبيئة خلقية من طبيعة متميزة ، تسم ببعض التصورات الاجتماعية الثقافية . وقد قدم جورج هومانز ( فى كتابه الجماعة الإنسانية ، الصادر عام ١٩٥١ ) تعريفاً مختصراً للأسرة فى ضوء نظريته العامة فى الجماعات ، حيث وصفها بأنها : « جماعة صغيرة » . ومن شأن هذا التعريف أن يحمل من الوظيفة البيولوجية للأسرة عنصراً ثانوياً فى تعريفها ، بينما يضع الثقل

(١٧) Cf. WI Thomas and F. Znaniecki, *The Polish Peasants in Europe and America*, 3rd ed. 1958 and E.F. Frazier, *The Negro Family in the United States*, 1939.

وانظر كذلك رينيه كونيغ ، مقال علم الاجتماع العائلى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ .

Cf. E. Faria, *Primary groups: Essence and Accident* in: *American Journal of Sociology*, (١٨) Vol. 38, 1932.

(١٩) وقد طور ريسان هذه النقطة مؤخرًا تطوراً حاسماً فى نظريته عن « جماعات الراق » Peer-Groups Riesman, D., *The Lonely Crowd*, 1950.

(٢٠) انظر هذا التعريف فى الفصل الذى عقده كونيغ لتعريف الأسرة فى كتابه « دراسات فى الاجتماع العائلى » الذى سبق الإشارة إليه ، وكذلك مقاله السابق ، ص ٢٥٧ .

كله عند تحديدها على العوامل الاجتماعية الثقافية<sup>(٢١)</sup>. فلم يعد الإنجاب ورعاية الوليد مركز نشاط الأسرة ومحور عملها ( وهو التصور الذي نلمسه عند وستمارك على سبيل المثال ) ، وإنما أصبح هذا المحور يدور حول بناء الشخصية الاجتماعية والثقافية . ومع اختفاء تلك النظرة القديمة غير المنصفة للوظائف الاجتماعية والثقافية ، اختفى أحد الأحكام القبلية الشائعة عن الأسرة ، والذي أثر في بعض الأحيان تأثيراً بالغ الضرر على دراسات الاجتماع العائلي<sup>(٢٢)</sup>

والواقع أن هذا النمط العائلي لم يظهر إلى حيز الوجود إلا كثمرة لعملية التقلص والانسلاخ ( الاستقلال ) التي مرت بها الأسرة ، والتي بدأ أنها مستحوول في نهايتها إلى « جماعة إنجاب » فقط . ولكن إذا نظرنا إلى الوظائف والصلات الاجتماعية والثقافية للأسرة في الماضي ، لتأكدنا أننا لا يمكن أن نفهم الأسرة الحديثة في جوهرها في ضوء وظيفة الإنجاب وحدها<sup>(٢٣)</sup> ، ولذلك لم يجانب الصواب ذلك الفر من الباحثين الذين ذهبوا إلى القول « بالميلاد الثاني » للإنسان داخل الأسرة كشخصية اجتماعية ثقافية (ورنيه كونيغ هو صاحب هذا المصطلح) .

وقد ترتب على هذا المنطلق الخاطيء ، من النظر إلى الأسرة كجماعة إنجاب فقط ، النظر عند تحليل الأشكال الدنيا من الأسر إلى اعتبار كل العلاقات القرابية علاقات قرابة دموية . فحيث نستخدم مصطلحات « أب » أو « أم » مثلاً ، يعتقد أنها علاقة أبوة دموية أو أمومة دموية ، ولذلك تعدلت النظرة السوسولوجية إلى القرابة بحيث تعد نسفاً من العلاقات الاجتماعية ، التي تنهض على أسس عديدة متنوعة ، تكون القرابة الدموية مجرد أساس واحد منها فقط . ولعل من الأسباب التي أدت إلى هذا التصور الخاطيء للأسرة كجماعة إنجاب فقط دخولها كموضوع بارز للدراسة في الدراسة السكانية والسياسية السكانية ، حيث لم تكن تلك الدراسات تهتم في معالجتها للأسرة إلا بدورها كوحدة للتكاثر ولهذا أصبح من الضروري أن تفصل وجهتي النظر السابقتين عن بعضها فصلاً واضحاً ، كي تتحدد المشكلات المتصلة بدراسات الاجتماع العائلي في الصورة السليمة . بقى في هذه النقطة أن نشير إلى الدراسة النفسية الاجتماعية للأسرة التي

(٢١) وهو الاتجاه الذي تتبناه اليوم بطريقة متعسفة أشد التسف شتى فروع الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية ، التي يرجع إليها في البداية أفضل الأسماء في تبنى نظرية بناء الشخصية الاجتماعية الثقافية والتليل عليها وبينها بطريقة طموسة وواضحة كل الوضوح . ونشير في هذا الصدد إلى دراسات روث بندكت ، ومرجريت ميد ، وكلايد كلاكهون ، ووالف لنتون وغيرهم .  
(٢٢) انظر مزيداً من مناقشة هذه النقطة والتدليل عليها عند كونيغ ، للرجع السابق ، ص ٢٥٨ . وكذلك المراجع الأخرى الواردة هناك .

(٢٣) انظر على سبيل المثال ، ولف لنتون ، دراسة الانسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، نشر المكتبة العصرية صيدا وبيروت ، ١٩٦٧ الفصل العاشر .

تنطلق من العمليات التربوية التي تقوم بها الأسرة ، والتي تنهض على تدريب الطفل وتعوده بعض أساليب السلوك في بادئ حياته ، ثم تتحول تدريجياً إلى جعله « يهضم » أو « يستدمج » internalize المعايير الاجتماعية العامة وبميت يتحول هو نفسه - مع البلوغ واكتمال النمو - إلى رقيب على نفسه ، قادر على حراسة تلك المعايير والدفاع عنها .

وهكذا لا تفهم عملية التربية داخل الأسرة كعملية تنشئة اجتماعية فحسب ، وإنما كعملية نقل للتراث الثقافي من جيل إلى الجيل التالي . والملاحظ أن المواقف الحرجة والحاسمة في تلك العملية التربوية - كالفطام أو النظافة الشخصية - تتباين في تفاصيلها تبايناً شديداً من ثقافة لأخرى ، الأمر الذي دفع الباحثين إلى إبراز دورها الهام في صياغة وتكوين « الشخصية الأساسية في كل ثقافة من الثقافات المختلفة . وإن كان من المبالغ فيه دون شك أن يذهب البعض إلى تفسير « الطابع القومي » أو « الشخصية القومية » في ضوء عادات النظافة الشخصية الشائعة في أسر تلك الثقافة ، وهو ما يحدث في بعض الكتابات المعاصرة اليوم . وإن كان من الصعب في الوقت نفسه إثبات أن نمط شخصية الرجل البالغ يختلف حتماً عن الأسلوب الذي كان يعامل به وهو رضيع أو وهو بعد طفل صغير . . ولعل أنجح الوسائل التي يستطيع بها الكبار فرض الطاعة والخضوع على الطفل الصغير هي حرمانه من الحب ، وليس ضخامة أجسامهم بالنسبة له أو تفوقهم عليه في القوة . إذ أن ذلك هو الموقف الذي يستجيب له الطفل بأقصى قدر من الحساسية بسبب القلق الذي يتعرض له نتيجة التهديد بفقدان الحنان والحب ، والملاحظ أن الدور البارز في هذا الصدد هو دور الأم دون متنازع ، على أن دور الأب لا يبرز في هذه الناحية إلا متأخراً ، علاوة على أنه قد تأثر - بشكل سلبي - بفعل الظروف والتطورات الاجتماعية العامة (٢٤) .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن دراسات الاجتماع العائلي تتخذ في كثير من الأحيان أكثر من طابع مميز ، وتغطي أكثر من مجال من آفاق المعرفة الاجتماعية . حيث تهتم من ناحية بدراسة العمليات المتصلة بانتقال المعايير الاجتماعية بأنواعها المختلفة ، كما تلتقي - من ناحية ثانية - الضوء

(٢٤) وهي الحقيقة التي دفعت البعض إلى القول بأننا نتجه نحو مجتمع لا يعرف للأب دوراً داخل الأسرة . وهذه قضية تحتاج إلى دراسة مستقلة = لأنها تمس في حقيقة الأمر طاقة واسعة من القيم والمعايير الأسرية والاجتماعات العامة . انظر حول هذه النقطة :

Vgl. A. Mitscherlich, «Der verschwundene

Vater, in: Kölner Zeitschrift für Soziologie und Sozialpsychologie, VII, 1955.

ولنفس المؤلف كتاب آخر حول نفس الموضوع :

Auf dem Wege zur vaterlosen Gesellschaft, 1963.

على مكانة الفرد في المجتمع الحديث . كما تمثل في النهاية جزءاً حاسماً في نظرية الشخصية الإنسانية بصفة عامة . فالطائفة الأولى من المشكلات والموضوعات تتعلق بمسائل علم الاجتماع العائلي بمعناه المحدود . بينما تنصب المشكلات من النوع الثاني على النقد الثقافي للمجتمع المعاصر . وأخيراً تدخل المسائل والموضوعات من النوع الثالث في ميدان علم الاجتماع العام ، الذي لا يهتم بتنوع عمليات التكامل العائلي في حد ذاتها ، بقدر ما يهتم بالعلاقات البنائية الوظيفية العامة القائمة بين الفرد والمجتمع بصفة عامة وبشكل مطلق . ولا شك أن عدم الفصل فصلاً واضحاً بين هذه المستويات الثلاثة من المعالجة ومن التعميم يؤثر تأثيراً سلبياً غاية السلبية على دراسات الأسرة في المجتمع المعاصر ، إذ أن من شأن هذا أن يخلط الباحث حتماً بين المعرفة الوضعية والتقييم الثقافي والتحليل النظري العام (٢٥) .

تلك طائفة من المشكلات والقضايا التي تشغل الباحث في علم الاجتماع العائلي المعاصر ، والتي لم تستأهل بعد ما هي جديرة به من رعاية واهتمام الدارسين العرب . ونرجو أن تكون هذه المناقشة السريعة لتلك القضايا ، بمثابة مقدمة للعديد من الدراسات التي يحويها هذا الكتاب .

(٢٥) تناول رينيه كونيغ هذه المشكلة بشكل عام وبالتطبيقات على عدد من مجالات الدراسة في علم الاجتماع في المرجع التالي .